



الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة

إن الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة ليس موضوعاً جديداً للبحث والمناقشة.

في الحقيقة لقد دُرِسَ هذا الموضوع بعمقٍ منذ أكثر من نصف قرن من قِبَلِ باحثين مهتمين بدراسة تطوُّر الإنسان خلال مراحل عمره وبدراسة بنية ووظائف العائلة. ولا شك أن هذا الموضوع قد نوقش بشكلٍ غير رسمي عبر تاريخ البشرية إذ إنَّ الشباب يتساءلون دائماً عن تأثير هذا الحدث على حياتهم كما أن الكبار يحاولون أن يشاركوا الآخرين خبرتهم ونصائحهم. لقد رصدنا في هذا الفصل تطوُّر الدراسات في هذا المجال وقدمنا النتائج الأساسية التي تمخَّضت عنها.

لماذا ندرس الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة

ربما يكون السؤال الأول الذي يطرح نفسه هو: لماذا يثير الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة كل هذا الاهتمام؟ هناك سببان محتملان لذلك: أولاً لأنَّ هذا الموضوع يهمُّ معظم الناس

بشكل مباشر. إننا كأطفال نرتبط بعلاقةٍ مع أمهاتنا وآبائنا، وعندما نكبر تؤثر هذه العلاقة على الطريقة التي نتطور بها ونمارس وظائفنا. كما أن معظمنا يصبح لديه طفل واحد على الأقل خلال فترة حياته وجميعنا تقريباً لدينا أصدقاء أو أقرباء يتعاملون مع الحمل والحصول على طفلٍ للمرة الأولى. إن تجربة الأبوة والأمومة تجربة عالمية تتشارك فيها جميع الثقافات والدول وإن كان معظم البالغين في المجتمعات الغربية اليوم يفضلون البقاء عزاباً أو عدم إنجاب الأولاد أو إنجاب طفل أو طفلين فقط.

تشير الإحصائيات إلى أن معظم الشباب ما زالوا يعتبرون الزواج جزءاً من مستقبلهم بما في ذلك إقامة العرس وشهر العسل وإنجاب الأطفال (كيلمارتين، 2000) وما زالوا ينظرون إلى أن الزواج يؤدي دوراً مهماً في تلبية الحاجات الشخصية كالحاجة إلى المشاركة والشعور بالأمان العاطفي (بارميثن وبلي باي، 1996) أظهرت دراسة بريطانية حديثة أن الناس عندما يُسألون عن «أحداث مهمة» حصلت لهم في العام الماضي فإن نصفهم تقريباً يذكر أحداثاً عائلية كما أن الحمل والولادة يذكران بتواتر أكثر من غيرهما من الأحداث (نيومان وسميث، 1997).

في الحقيقة قد تكون رغبة الكبار في الاهتمام بالرضع والأطفال من الأمور التي نتناقلها كجزءٍ من ميراثنا التطوري. في النهاية إن بقاء الجنس البشري يعتمد على رغبتنا في التكاثر وإن كلاً من علاقة الزوجين ببعضهما وعلاقتهم بالطفل ضروري

لنجاح عملية التكاثر (يوس، 1994). يشير العديد من الباحثين إلى أن انطباق مبادئ التطور على مرحلة الأبوة أو الأمومة لا ينحصر فقط في عملية الحمل والولادة فلأن الإنسان يحتاج إلى سنوات قبل أن ينضج، من المهم أن يتولّى الوالدان رعاية أطفالهما في السنين الأولى من أعمارهم. إن إسهام الوالدين في حماية وتعليم أولادهما يساعد على حماية الأطفال وانتقال المورثات إليهم (بل وريتشارد، 2000) بعبارة أخرى من وجهة نظر تطورية من المهم أن ينجب الكبار أطفالاً وأن يُعدّوا لاستثمار الوقت والجهد والمصادر المادية في تعزيز تطور هؤلاء الأطفال.

إن السبب الثاني للاهتمام بالانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة أكثر أكاديميةً بقليل من السبب الأول على الرغم من أن علاقته بالأشخاص والعائلات واضحة جداً.

يتمثل هذا السبب في التغيرات المهمة التي ترافق مجيء رضيع جديد. قبل مجيء الطفل الأول تكون العائلة مكونة من الزوجين فقط وبعد مجيئه يصبح الأمر أكثر تعقيداً فبدلاً من وجود علاقة واحدة بين شخصين يصبح لدينا ثلاثة علاقات بين ثلاثة أشخاص. كما أن القادم الجديد - كما ذكرنا سابقاً - عاجزٌ نسبياً ويعتمد على والديه في الرعاية والحماية. إذن على الوالدين الجديدين أن يستجيبوا لحاجات وإشارات طفلهم ولهذا الاستجابات تأثيرات بعيدة المدى. على سبيل المثال: عادة ما يبدي الآباء والأمهات الجدد استجابات عاطفية قوية تجاه أطفالهم (على الرغم من أن

هذه الاستجابات تختلفُ من أب إلى آخر ومن وقت إلى آخر). كما أن هذه الاستجابات العاطفية المكوّنة من الحب والاهتمام (وأحياناً الإحباط) تمتزج بالجوانب العملية من الأبوة والأمومة إذ إنّ هناك عدة مهام منزلية جديدة يجب القيام بها مع الرضع الجدد.

باختصار إن دور الوالد يتطلب الكثير من الجهد ولأنه يقتحم حياة الإنسان بشكلٍ مفاجئ غالباً ما يصاحبه الشعور بالقلق والإعداد غير الكافي (ميللر وسولي، 1980). بسبب الضغوط والمتطلبات التي تحملها مرحلة الأبوة أو الأمومة يبدو من الطبيعي أن تطرأ بعض التغيّرات على العلاقة بين الأم والأب.

في الحقيقة هذه التغيّرات متباينة جداً وهي تتضمن المكافآت والضغوط، لذلك تُعتبر هذه التغيّرات موضوعاً مثيراً للاهتمام للباحثين والممارسين الذين يهتمون بالأزواج والعلاقات العائلية وكذلك للأباء والأمهات أنفسهم.

التخطيط للأبوة أو الأمومة

كما لاحظنا قبل قليل إن الباحثين الذي أرادوا دراسة تجربة الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة للمرة الأولى درسوا الأشخاص أو الأزواج الذين أصبحوا آباءً أو أمهات منذ وقت قريب أو أولئك الذين كانوا يتوقّعون طفلهم الأول عندما أدرجوا في الدراسة. على أيّ حال إن الانتقال إلى هذه المرحلة يبدأ عند العديد من الأزواج قبل فترة طويلة من قدوم الطفل الجديد إذ تسبقه فترة من التخطيط واتخاذ القرار.

هل ننجبُ طفلاً أم لا ؟

بالطبع لا يحدث الحمل دائماً نتيجة للتخطيط، ونادراً ما يحدثُ في الوقت الذي يتمنّاه الأبوان. عندما يولد الأطفال لأبوين يتمتّعان بعلاقةٍ مستقرّةٍ غالباً ما يكون هذان الأبوان قد أنفقا الكثير من الوقت والجهد في التخطيط لمرحلة الأبوة أو الأمومة.

يدرك العديد من الأزواج أهمية القرار المشترك في هذا الموضوع ويفضّلان النقاش والتفاوض المباشر حول خططهما فيما إذا كانا سينجبان أولاداً أم لا وفي حالة الموافقة على الإنجاب متى سيكون الوقت المناسب؟

نريد في بداية هذا الفصل أن نشير إلى أننا لاحظنا أن معظم الشباب يرون إنجاب الأطفال جزءاً من مستقبلهم لكنّ نسبة الذين يقرّرون عدم الإنجاب آخذة في الازدياد إن هاتين الحقيقتين تشيران إلى أهمية الطريقة التي ينظر بها الناس إلى المزايا والتكاليف المرافقة لإنجاب الأولاد.

لقد طوّر الباحثون المهتمون بهذه الموضوعات أسئلة لقياس الجوانب المختلفة لمواقف الناس من إنجاب الأولاد.

ما مدى رغبة الأشخاص في الإنجاب؟ إلى أي حدٍّ يعتقدون أنهم سيجيدون التعامل مع الأطفال؟ إلى أي حدٍّ يعتقدون أن العناية بالصغار ستجلب لهم الرضا؟ ما مدى الإزعاج الذي قد تسببه لهم تجربة تربية الأطفال (رولز، سيمبسون بليكلي، لانيفان، آلن، 1997). أكّدت هذه الدراسات أن الأشخاص يختلفون كثيراً

فيما بينهم في حاجتهم إلى الأطفال وفي توقعاتهم عن المزايا والتكاليف التي ترافق إنجاب الأطفال.

تكاليف إنجاب الأطفال يمكن تقسيم تكاليف (أو معوّقات) إنجاب الأطفال إلى عدد من المجالات.

♥ القدرة على إقامة علاقة مع الطفل: بعض الناس يشعرون بالقلق حيال علاقاتهم بأطفالهم. على سبيل المثال قد يشعرون بعدم الراحة لوجود طفل صغير أو بالقلق من احتمال عدم حدوث تعلق عاطفي بالطفل.

♥ المسؤولية: بعض الناس يبدون مخاوفهم من حجم العمل والمسؤولية اللازمين لتربية الطفل والتوتر العاطفي المرافق للعمل على ضمان صحة الطفل وسلامته وأمنه.

♥ نمط الحياة: إن القيود التي يفرضها إنجاب الأطفال على النشاطات الاجتماعية والنشاطات الزوجية المشتركة تزعج كثيراً من الناس. كذلك يخشى بعضهم - أن يُعيقهم إنجاب الأطفال عن تحقيق أهدافهم الشخصية المهمة سواءً كانت تعليمية أو مالية أو مهنية.

♥ التأثيرات على الزواج: بعض الناس يتخوّفون من التوتر الذي قد يسببه إنجاب الأطفال على العلاقة الزوجية وذلك بسبب المهام الإضافية التي تُلقى على كاهل الشريك الآخر والتي تتطلب وقتاً وانتهاهاً وجهداً.

مزايا إنجاب الأطفال من جهةٍ أخرى يدرك الناس المزايا المرافقة لإنجاب الأطفال ولديهم الكثير من الأسباب التي تدفعهم إلى الرغبة في إنجاب الأطفال. يقول كليمنتس وماركان (1966، ص 292): (هناك أسباب لإنجاب الأطفال تساوي عدد الأزواج الذين يرغبون في الإنجاب) قد لا يعي الناس دائماً هذه الأسباب. يعتقد بعضهم أن الحمل الذي يحدث دون تخطيط بسبب إهمال استخدام مانعات الحمل يعكس أحياناً رغبةً غير واعية في إنجاب الأطفال (هاريس وكومبل 1999). صحيحٌ أن بعض الأشخاص قد لا ينتبهون إلى الدوافع التي تحملهم على إنجاب الأطفال إلا أن بعضهم الآخر يستطيعون أن يُعطوا سبباً أو أكثر لقرارهم بالإنجاب.

♥ **الحاجة الحيوية:** يمكن النظر إلى إنجاب الأطفال على أنه إشباع لحاجات الإنسان الحيوية إلى التكاثر. كما ذكرنا سابقاً إن الرغبة في التكاثر ضرورية لبقاء الأنواع، إن الأطفال لطفاء ومحَبَّبون وهم يثيرون عواطف الحب والرعاية في والديهم.

♥ **المكاسب العاطفية:** يذكر بعض الأشخاص أنهم يريدون إنجاب الأطفال لأنهم يشعرونهم بالحب والمشاركة ويرى بعض الناس في إنجاب الأطفال متعةً وتحدياً ومجالاً للشعور بالإنجاز الشخصي.

♥ **رمزٌ للحب:** يرى بعض الأزواج في إنجاب الأطفال طريقةً للتعبير عن حبهم ومودَّتهم للطرف الآخر أو رمزاً للحبِّ بينهما. ويعتقد بعضهم أن إنجاب الأطفال يقربُّ الزوجين من بعضهما ويزيد الترابط والاستقرار في العلاقة الزوجية.

♥ الشعور بالاستمرارية: يرى بعض الأزواج في إنجاب الأطفال طريقةً لتوسيع دائرة نفوذهم أي أنهم يعبرون عن رغبتهم في الاستمرار من خلال أولادهم وأحفادهم. كذلك يعبر بعضهم عن رغبتهم في حمل «اسم العائلة» أو الاستمرار في «خط العائلة».

♥ تطوير الخبرة: هناك سبب آخر يعطيه بعض الناس لإنجاب الأطفال وهو أنهم يريدون «القيام بالأمور بشكل أفضل» مما قام به والديهم، بكلمةٍ أخرى، إنهم يريدون أن لا يرتكبوا الأخطاء التي ارتكباها آباؤهم.

♥ الضغط الاجتماعي: قد يكون الإنجاب بالنسبة إلى بعض الأزواج استجابةً لتوقعات الآخرين. قد تأتي هذه التوقعات من المجتمع أو الأصدقاء أو أفراد العائلة الذي يضغطون على الزوجين لإنجاب الأطفال.

♥ التغلب على المصاعب: وأخيراً يرى بعضهم في الإنجاب وسيلةً لرأب الصدع في العلاقة بين الزوجين وللتغلب على الشعور بالوحدة وعدم وجود المحبين. من المهم أن نلاحظ أن هذه التوقعات غالباً ما تكون غير واقعية وفي الحقيقة غالباً ما تزيد واجبات الأبوة أو الأمومة من مشكلات أولئك الذي يعانون أصلاً من إرباكاتٍ في علاقاتهم مع أزواجهم وفي حياتهم الشخصية.

الخلاصة أنه على الرغم من تكاليف تربية الأطفال فإن الناس لديهم الكثير من الأسباب التي تدفعهم إلى الإنجاب وفي الحالات التي يتفق فيها الزوجان على مبدأ الإنجاب تبرز الأسئلة المتعلقة بتوقيت الإنجاب.

ما الوقت المناسب للإنجاب؟

إن إنجاب الأطفال للمرة الأولى يحدث في مختلف الأعمار وفي مختلف مراحل دورة الحياة. على أي حال هناك ميلٌ في المجتمعات الغربية إلى تأخير الإنجاب إلى ما بعد الثلاثين من العمر. وهي ظاهرة مثيرة للاهتمام لأنها تعني ميل الكثيرين من الأزواج إلى تجاهل «ساعتهم البيولوجية» وإنجاب الأطفال بعد السن الذي تكون فيه خصوبتهم في أوجها.

لم نفهم بعد بشكلٍ جيّد كيف يحدّد الأزواج وقت إنجاب الطفل الأول. بذل علماء الإحصاء جهداً كبيراً في دراسة العلاقة بين توقيت إنجاب الطفل الأول والخصائص الاجتماعية لكلٍّ من الزوجين. بالنسبة للنساء مثلاً قد يسأل الباحثون عن العلاقة بين توقيت الإنجاب ونمط عمل الزوجة أو مستواها العلمي.

إن التركيز على بعض المجالات كالدراسة والمهنة منطقيٌّ جدّاً فالنساء اللواتي يركّزن على التحصيل في هذين المجالين غالباً ما يوجّلن الحمل الأوّل وبالمقابل نجد أن الحمل والإنجاب غالباً ما يعطّلان النشاط في هذين المجالين. لكن نقطة الضعف في هذه الدراسات أنها تتجاهل عملية اتخاذ القرار المشترك التي تتم بين الزوجين. لقد بدأ التركيز على هذه العملية في الآونة الأخيرة فقط.

إن نتائج هذه الدراسات عن العلاقة بين الزوجين معقّدة جدّاً وتدلُّ على أن عملية اتخاذ القرار بشأن إنجاب الطفل الأول تأخذ أشكالاً مختلفة في الثقافات المختلفة.

على سبيل المثال في الثقافات ذات التوجُّه العائلي التقليدي يبدو أن صفات المرأة هي التي تقوم بالدور الأكبر في توقيت الحمل الأول. لا يُعتبر هذا أمراً مفاجئاً لأن هذه الثقافات تعتبر رعاية الطفل هي مهمة المرأة بالدرجة الأولى. بالمقابل في الثقافات التي تعطي كلا الزوجين أدواراً متماثلة يكون لصفات الزوجين التأثير نفسه في تحديد وقت الإنجاب ربما لأن كلا الزوجين يسهم في قرارات العائلة (كورجين ليفرور ودوجونغ غيرفيلد، 1996).

الدراسات المبكرة عن الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة وقت الأزمة

لقد أُجريت الكثير من الدراسات عن تأثير الإنجاب الأول على الوالدين لكن القليل من الدراسات أُجريت عن الطريقة التي يخطُّ بها الوالدان للإنجاب. من الواضح أن الدراسات المتعلقة بهذا الأمر قد تغيَّرت مع الوقت سواءً فيما يتعلق بطرق البحث أو نتائج البحث. سوف نبدأ بوصف الدراسات المبكرة ونشرح لماذا دفعت محدودية هذه الدراسات إلى إجراء المزيد من الأبحاث الأكثر تعقيداً.

منذ حوالي خمسين عاماً والباحثون يستقصون آثار الإنجاب الأول على الوالدين. في كتابه الشهير الذي نُشر عام 1949 طوَّر هيل نموذجاً للتوتر والأزمة التي يسببها الإنجاب للعائلة وقد ذكر في كتابه أن الإنجاب يسبب توتراً في بعض الحالات يودِّي إلى تغييرات جذرية في الأدوار وأنماط التفاعل بين الزوجين مما قد

يؤدّي إلى أزمة عائلية. إن الفكرة القائلة بأنّ الإنجاب يوجد أزمةً في حياة الأشخاص والأزواج استمرت عدة عقود بعد نشر هذا الكتاب وظهر ذلك جلياً في الدراسات التي أُجريت في تلك الفترة. تنقسم تلك الدراسات إلى نمطين أساسين: دراسات سريرية ومقابلات ترصد الماضي.

الدراسات السريرية

لقد جاءت الدراسات السريرية المبكرة عن الأبوة والأمومة بشكلٍ رئيس من خلال التحليل النفسي (مثال: بندك 1959 وبيبرينغ ودوير وهنت وإينغتون وفالنتين 1961 وكابلان 1957) اعتمدت تلك الدراسات على تقييمات الأطباء للأمهات المقبلات على الإنجاب أو الأمهات اللواتي أنجبن حديثاً ولأزواجهن ومالت إلى التركيز على الصراعات الداخلية التي واجهت هؤلاء الأشخاص.

على الرغم من أنّ هذه الطريقة تزيد من معرفتنا بالمشكلات التي تواجه الآباء الجدد إلا أنّ العينات التي درست كانت صغيرة.

ما هو أهم من ذلك هو أنّ هذه العينات لم تكن لأبوين نموذجين وإنما تكوّنت من رجال ونساء خضعوا للعلاج مدة من الوقت أو راجعوا العيادة بسبب مشكلات عاطفية مهمّة بدأت خلال الحمل أو بعد الولادة بمدة قصيرة. لأنّ العينات لم تكن نموذجية فإن النتائج لم تكن صالحة للتطبيق خارج مجال الممارسة السريرية.

المقابلات التي ترصد الماضي

النمط الثاني من الدراسات التي اعتمدت على وجهة نظر (الأزمة) تناولت شريحة أوسع وتمتَّ فيها مقابلة آباء وأمّهات وسؤالهم عن وقّع الطفل الأوّل على حياتهم. على سبيل المثال قابل لوماسترز 1957 ثمانية وأربعين زوجاً واستنتج أن إنجاب الطفل الأوّل مثلّ أزمةً بالنسبة لمعظمهم. بعد عدة سنوات أجرى داير 1963 دراسةً مشابهة ووصل إلى نتائج مماثلة لكنه أضاف إلى النتائج السابقة ملاحظته الرابطة بين حالة الزواج قبل الإنجاب وحجم الأزمة التي يسببها الإنجاب.

مرّةً أخرى عانت هذه الدراسات من معوقات كبيرة. لم تكن المقابلات متعلّقة بالماضي وحسب وإنما كانت في كثير من الحالات تحدث بعد عدّة سنوات من الإنجاب. إن التقارير المتعلّقة بأحداث الماضي تكون معرضة للخطأ دائماً لأنها تعتمد على أشخاص يملكون ذكريات صحيحة وكاملة عن الأحداث التي مرّوا بها. لقد لاحظ غروسمان (1988، ص 89) أن التقارير المتعلقة بالماضي تكون غير دقيقة خصوصاً فيما يتعلّق بإنجاب الطفل الأوّل لأنّ هذه التجربة تكون بالنسبة للأبوين «معقّدة وشديدة الوطأة ومرهقة».

الدراسات المتأخرة: تطوير طرق البحث

في سلسلة أخرى من الدراسات عن الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة قام هوبس (1965 - 1968) بتقييم الأبوين عندما يكون طفلهما صغيراً (من شهر إلى ثمانية أشهر من العمر) وقد استخدم

طريقة أكثر تنظيمًا في عملية التقييم وبالتحديد استخدم لائحة تحدّد فيها مشكلات أو توترات معيّنة قد ترافق إنجاب الطفل الأوّل (مثلاً: تعطيل العادات الروتينية، الإرهاق التعب وهكذا) لقد بيّنت دراسات هوبس أنه على الرغم من كون الإنجاب الأوّل يسبب بعض الشدّة النفسية للأبوين إلا أنه لا يكون أزمة كبيرة لهما.

لماذا اختلفت النتيجة التي توصل إليها هوبس مع النتيجة التي توصل إليها الباحثون السابقون؟ إن التفسير الأرجح لذلك يكمن في الطرق المختلفة التي استخدمها في دراسته.

لا شك أن الدراسات السريرية ستظهر إنجاب الطفل الأوّل على أنه حدثٌ مليءٌ بالمتاعب والأخطار لأنّ العينة التي ستجرى عليها الدراسة هم أولئك الذين يعانون من مشكلات مع أطفالهم. كذلك بالنسبة للدراسات التي تعتمد على تذكّر الماضي فإن نقطة الضعف فيها هو أن الناس غالباً لا يملكون ذاكرة كاملة وصحيحة عن ماضيهم كما أن الأحداث التي سيتذكرونها هي تلك التي كانت بارزةً (وغالباً مليئةً بالتوتر) في حياتهم.

تصميم طريقة البحث وتأثيرات إنجاب الطفل الأوّل

إن الطرق التي تُستخدم في دراسة الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة غالباً ما تؤثر على نتائج هذه الدراسة. بيّنت الدراسات المبكّرة أن إنجاب الطفل الأوّل يسبّب للأبوين مشكلات كبيرة في التأقلم لكنّ هذا الاستنتاج قد لا يكون مبرراً.

لقد أوضح كوك وكامبل (1979) هذه النقطة جيداً. فقد حددًا ثلاثة أدلة ضرورية يجب أن يُثبتها الباحثون إذا أرادوا أن يربطوا بين إنجاب الطفل الأول والمشكلات التي تحدث بين الزوجين.

ذكر كوك وكامبل أنه إذا أراد الباحثون أن يعزوا الانخفاض في سوية العلاقة الزوجية إلى إنجاب الطفل الأول فعليهم أن يُثبتوا أن هذا الإنجاب:

♥ مرتبطٌ بانخفاض مستوى العلاقة بين الزوجين (السبب والنتيجة متلازمان).

♥ يأتي قبل انخفاض مستوى العلاقة بين الزوجين (السبب يسبق النتيجة).

♥ هو أفضل تفسير لانخفاض مستوى العلاقة بين الزوجين (استبعاد التفسيرات الأخرى).

إن إثبات ذلك يحتاج إلى أن يكون البحث متصفاً بصفتين أساسيتين:

- أولاً: أن يستخدم الباحثون الدراسات الطولية أي تلك التي تتابع الأزواج من الحمل وحتى الولادة.

- ثانياً: يجب أن تكون هناك مجموعة (مقارنة) تضم الأزواج الذين لم ينجبوا أطفالاً وتتابعهم خلال الفترة الزمنية نفسها. بهذه الطريقة يصبح من الممكن مراقبة التغيرات التي تحدث في العلاقة بين الزوجين. ويمكن أن نلاحظ فيما إذا كانت هذه

التغيُّرات متماثلة بين المجموعتين (مما يعني أن هذه التغيُّرات - هي ببساطة - نتيجة للفترة التي أمضاها الزوجان معاً) أو أنها أكثر في المجموعة التي أنجب أفرادها أطفالاً (مما يعني أنها حدثت نتيجةً لإنجاب الطفل الأول).

تطورات أخرى في دراسة الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة

هناك جانبان مهمَّان أصبحتا فيهما دراسات الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة أكثر تعقيداً. الجانب الأول منهما هو الطرق التي تُستخدم في تقييم خيارات الناس المتعلقة بالأبوة أو الأمومة.

رأينا أن الدراسات المبكِّرة اعتمدت إما على التقييمات السريرية أو على التقارير الراجعة التي تمَّ الحصول عليها من خلال المقابلات. على الرغم من سهولة نقد هاتين الطريقتين إلا أنه في الحقيقة لا توجد طريقة خالية من العيوب لتدوين خبرات الآباء والأمهات. على سبيل المثال، يمكن للمقابلات أن تكون غنية ومليئة بالتفاصيل والمعلومات ما دامت لا تتضمن تقارير عن الماضي. على أيِّ حال لأنَّ هذه المقابلات تزوِّدنا بالكثير من المعلومات يجب تحديد عدد الأسئلة وعدد الأشخاص الذين تتمُّ مقابلتهم. بالمقارنة فإنَّ الأسئلة المغلقة أو القوائم أسهلُّ تطبيقاً ومن السهل إعطاؤها درجةً معيَّنة لكنها لا تعطي الشخص المسؤول مجالاً لكي يثير الموضوعات المهمة بالنسبة له أو لكي يعبر عن استجاباته بكلماته الخاصة. ولأنَّ الأسئلة غالباً ما تتناول تجارب الناس العادية أو العامة فمن الصعب على المسؤولين أن يتذكروا

المواقف المختلفة التي لها علاقة بالسؤال وأن يأتوا بجواب واحد يلخص تجاربهم بأفضل شكل ممكن. إن الطريقة التي تمكّنتنا من تجاوز هذه المشكلة هي المذكرات اليومية التي تطلب من الناس أن يسجلوا أحداثاً خاصة إما عند وقوعها كل مرة أو مرة واحدة في اليوم على الأقل. قد تكون هذه التقارير مرهقة للأشخاص الذين يُطلب منهم تسجيلها لكنها غالباً ما تعطي معلومات أكثر مصداقية عن تواتر وطبيعة أحداث خاصة.

لأن هذه الطرق لها نقاط ضعفها ونقاط قوتها فإن الباحثين يميلون إلى استخدام أكثر من طريقة في الدراسة الواحدة. وهكذا تعوّض نقاط القوة في طريقة ما نقاط الضعف في طريقة أخرى بحيث يتم الحصول على صورة أكمل عن تجارب الناس.

إنَّ السبب الآخر الذي جعل دراسات الأبوة والأمومة أكثر تعقيداً هو إدراك أهمية دور الآباء. في الماضي مالت بعض الدراسات إلى التركيز على الأمومة كتجربة نسائية في حين قامت دراسات أخرى بجمع المعلومات من الآباء لكن بطريقة سطحية (كمقارنة الشعور بالشدة النفسية بين الأمهات والآباء). ربما يكون هذا التجاهل النسبي لدور الآباء بسبب الاعتقاد السائد أن الأمهات هنَّ من يقيمن برعاية أولادهن بشكل رئيس.

على الرغم من أنَّ الأمهات ما زلن - فعلاً - يقمن بدور الرعاية لأطفالهنَّ أكثر من الآباء، إلا أنَّ الآباء يؤدون بوضوح دوراً مهماً جداً في عملية الانتقال من مرحلة الزوجين إلى مرحلة

الأسرة. إن معظم الآباء يسهمون بفاعلية في رعاية أولادهم واللعب معهم وفي الحقيقة يشكّل الأطفال روابط قوية مع كلٍّ من أمهاتهم وآبائهم (كما سنناقش ذلك بشكل أوسع في الفصل الثاني) هذه الحقائق تؤكد حقيقة أن الآباء يؤدون أدواراً مهمةً في تطوّر أبنائهم. إنَّ إسهام الآباء في إدارة شؤون المنزل خلال فترة الانتقال تلك هو أمرٌ مهمٌ جداً. في الحقيقة سنرى بعد قليل كيف أنَّ مشاركة الآباء في إدارة شؤون المنزل هو العامل الأهم الذي يساعد الأزواج والزوجات على التأقلم مع عملية الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة. لهذه الأسباب فإنَّ دراسة شاملة لعملية الانتقال تلك تحتاج إلى تقييمٍ لكلٍّ من تجارب الرجال والنساء في هذا المجال.

كيف يغيّر إنجابُ الولدِ الأوّلِ العلاقةَ بين الزوجين؟

بما أننا ذكرنا التطوّرات التي حدثت في دراسة هذه المرحلة الانتقالية فسندكر الآن النتائج الأساسية الناجمة عن الأبحاث الحديثة التي ركّزت بشكلٍ خاص على التغيّرات التي تطرأ على العلاقة بين الزوجين. إنَّ النتائج التي سنوردها الآن مستقاة من عددٍ من الدراسات المهمة في هذا المجال بما فيها دراسات بيلسكي وزملائه (بلسكي وكيلي 1994، بلسكي وبنكي 1988، بلسكي وروفين 1990) ودراسات فيليب وكارولين كوان وزملائهما (كوان وكوان 1988، كوان وهيمينغ وميللر 1991) ودراسات كروهان (1996) ودراسات هيوستن وزملائه (هيوستن وفانجيلستي 1995، هيوستن وماك هيل وكروتر 1986، جونسون وهيوستن 1998) ودراسات ليفي شيف (1994) ودراسات أوسوفسكي وكلب (1993).

علّقنا سابقاً في هذا الفصل على التغيّرات المهمة التي تطرأ على العائلة مع قدوم أول طفل: إذ تصبح بنية العائلة أكثر تعقيداً كما أن الطفل الجديد يكون معتمداً بشكلٍ كاملٍ على والديه.

بسبب هذه التغيّرات في بنية ووظيفة العائلة ليس غريباً أن الباحثين درسوا التغيّرات التي تطرأ على العلاقة بين الزوجين خلال عملية الانتقال تلك. يمكن تقسيم التغيّرات في علاقة الزوجين التي تمت دراستها إلى أربعة أقسام: تقسيم أعمال المنزل، وقت الفراغ والصحة والعلاقة الحميمة، النبرة العاطفية التي تصف التفاعل بين الزوجين (إيجابية كانت أم سلبية) والرضا عن العلاقة.

تقسيم أعمال المنزل

لوصف التغيّرات التي تطرأ على العلاقة بين الزوجين فإنّ أداء الواجبات المنزلية هو موضوع مناسب للبدء به.

من الواضح أنّ قدوم الولد الأوّل يجلب معه الكثير من المهمّات والمسؤوليات الجديدة كما أنّ هذا الحدث هو الحدث الذي يذكر معظم الأزواج أنه يحدث تغييراً في العلاقة بينهما. بغضّ النظر فيما إذا كان الباحثون قد أجروا دراساتهم على عينات صغيرة من الأزواج أو على عينات واسعة فإنّهم وجدوا أنّ إنجاب الطفل الأوّل يترافق مع تقسيمٍ للعمل بشكلٍ أكثر تقليديّةً.

بعبارةٍ أخرى إنّ قدوم الطفل الجديد يبيلور العمل على أساس الجنس فالرجال يركّزون على العمل المأجور خارج المنزل (دور كاسب الرزق) والنساء يركّزن على العناية بالطفل وغيرها من المسؤوليات داخل المنزل (دور ربّة المنزل).

كيف تحدث هذه التغيرات؟ كما ذكرنا سابقاً فإنَّ قدوم الطفل الجديد يعني «مزيداً من العمل». بعض الدراسات تشير إلى أنَّ أنماط الرجال في العمل المأجور وغير المأجور لا تتغير كثيراً في هذه المرحلة من حياتهم لكنَّ دراسات أخرى أظهرت أن الرجال يزدون من ساعات عملهم المأجور عندما يصبحون آباءً (بيتمان 1991). إن هذه النتيجة الأخيرة تتناسب مع المعلومات التي تمَّ الحصول عليها من خلال المقابلات واستعراض الماضي والتي تشير إلى أن الآباء الجدد يعون مسؤولياتهم الإضافية بما في ذلك مسؤوليتهم في إيجاد دخلٍ لعائلاتهم.

في الوقت نفسه فإنَّ نمط عمل النساء يتغير بشكل كبير عندما يَحْمِلْنَ وَيُنْجِبْنَ أولاداً. بشكل عام تشمل هذه التغيرات ترك العمل المأجور أو التقليل من ساعات العمل والانهماك في أعمال المنزل. إنَّ معظم النساء لا يأخذن حصة الأسد من المهام المتعلقة بالطفل وحسب بل إنهنَّ يزدن من ساعات انشغالهنَّ في أعمال المنزل. من المهم أن نلاحظ أنَّ معظم الأمهات الجدد يذكرن أن أعمال المنزل ورعاية الطفل فاقت توقعاتهن قبل الإنجاب. لذلك ليس مفاجئاً أن يودِّي هذا الفرق بين التوقعات والتجربة إلى الإحباط والشعور بعدم الرضا عند معظم الزوجات.

إذن، إنَّ ما يسببه قدوم الولد الجديد من ترسيخٍ للتقسيم التقليدي في أدوار العمل بين الرجال والنساء غالباً ما يأتي من دون تخطيطٍ مسبقٍ وبشكلٍ غير متوقَّع. إنَّ العامل الأكبر وراء هذا

التطور يكمن في الاحتياجات الكثيرة التي يواجهها الأبوان: إذ إنَّ ما لدهما من وقتٍ وطاقةٍ محدود كما أنَّ التوزيع التقليدي لطبيعة العمل يبدو أنه الطريقة الأفضل لإنجاز الأعمال (وخصوصاً إذا بقيت الزوجة في المنزل). أما العامل الثاني فيتضمَّن الموضوعات التي لها علاقة بالقدرة على الكسب والاستقرار في العمل. بين العديد من الأزواج يظلُّ الرجلُ متمتّعاً بقدرةٍ على الكسب أكبر من المرأة ولكنَّ حريته في التوفيق بين جدول أعماله ومتطلبات الحياة العائلية تنقص أيضاً (شوارتز 1994). هناك عامل آخر يكمن في أن الزوجات يَمِلْنَ إلى موافقة أزواجهنَّ في الطريقة التي يوزعون فيها المهام. ومع أن هذه النتيجة قد تُعزى إلى سلطة الرجل وسيطرته على صناعة القرار إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة.

إنَّ ميل الزوجات إلى القبول بما يفصله أزواجهنَّ يزداد كلما ازدادت مشاعر الحب تجاه أزواجهن مما يدفعهنَّ إلى تحجيم مواقف الصراع وزيادة الانسجام العائلي.

بالطبع لا يتبنَّى كلُّ الأزواج التوزيع التقليدي للمهام. لقد ركَّزت العديد من الدراسات بشكلٍ خاص على أنماط العمل المنزلي (دوتش ولوسبير وسيرفيس 1993، سانشير واثومسون 1997) تبين هذه الدراسات أنَّ انخراط الزوج في العناية بالطفل وغيرها من أعمال المنزل تختلف بشكلٍ كبير من عائلةٍ إلى أخرى وأنَّ أسباب هذا التنوع معقَّدة. إنَّ المدى الذي يشارك فيه الزوج في أعمال المنزل يرتبط بأنماطٍ أوسع من العمل بما في ذلك ساعات عمل

الزوجين ودخلهما ونوع المهنة التي يمارسانها. كما أنه يرتبط بمواقف الزوجين من دور كل جنس ومن حقوق المرأة وبالآليات المعقدة التي تعمل ضمن العلاقة الزوجية بما في ذلك كيفية إدراك الزوجين لمعاني الرضا والمشاركة والصراع.

من المثير للاهتمام هو أنه على الرغم من أن أعمال المنزل والعناية بالطفل غالباً ما يُنظر إليهما على أنهما عمل واحد (العمل المنزلي) إلا أن العوامل التي تؤثر على مشاركة الزوجين في أيٍّ من هذين النمطين من العمل مختلفة تماماً. على سبيل المثال تتحدد مشاركة الآباء في أعمال المنزل بالآليات التي تعمل ضمن العلاقة الزوجية في حين أن مشاركتهم في العناية بالأطفال تحددها مواقفهم غيرالتقليدية من دور الرجل وعدد ساعات عمل المرأة. لهذه الأسباب من الأفضل النظر إلى أعمال المنزل والعناية بالطفل كموضوعين منفصلين يجب على الزوجين التعامل معهما.

وقت الفراغ والصحة والعلاقة الحميمة

كيف يؤثر قدوم الولد الجديد على أوقات الفراغ التي يقضيها الزوجان معاً وعلى شعورهما بالصحة والعلاقة الحميمة؟ كما هو متوقع فإن النتيجة التي خرجت بها معظم الدراسات هو أن هذه الجوانب من العلاقة بين الزوجين تميل إلى التراجع بعد مجيء الطفل الأول.

فمعظم الآباء والأمهات الجدد يذكرون تراجعاً في عدد النشاطات التي يتشاركون فيها أثناء أوقات الفراغ وكذلك في

اتخاذ القرار المشترك وفي الصحبة بينهم بشكل عام. كما أنهم يذكرون تناقص الحوار بينهم وخصوصاً المشاركة في الأحاديث القصيرة. وفقاً لمعظم الدراسات فإنّ قدوم الطفل الأول لا يؤثّر كثيراً على حجم الوقت الذي يقضيه الأزواج والزوجات مع بعضهم لكنّ الذي يتأثّر هو الكيفية التي يقضون بها هذا الوقت. فالأبوان الجديان لا يملكان الكثير من أوقات الفراغ، كما أنّ خياراتهما في النشاطات التي سيقومان بها في أوقات الفراغ تصبح محدودة أكثر: إذ تقل فترات خروجهما معاً إلى العشاء أو النزهة وغالباً ما يبحثان عن نشاطات مشتركة تمكّنهما من رعاية الطفل.

إن الآباء والأمهات الجدد (وخصوصاً الآباء) يصبحون أقل انخراطاً في نشاطات المتعة الفردية أي تلك النشاطات التي قد يتمتع بها أحد الزوجين ولا يتمتع بها الزوج الآخر. باختصار عندما يقضي الزوجان أوقاتهم معاً فغالباً ما تكون هذه الأوقات في رعاية الطفل أو القيام بغير ذلك من المهام المنزلية. على الرغم من أنّ مدة الأوقات التي يقضيها الزوجان معاً لا تتغيّر إلاّ أنّها غالباً ما يشتملان من ضعف العلاقة بينهما. من الواضح أنه ليس كل «الأوقات المشتركة» متشابهة.

بيّنت دراسات حديثة على الآباء والأمهات الجدد أنّه من الشائع حدوث تغيير في العلاقة الجنسية بينهما (فون سيدو، 1999). يتضمّن هذا التغيّر انخفاض الرغبة الجنسية والاستجابة والنشاط الجنسي (سواءً الجماع أو غيره من أشكال الإثارة

الجنسية) والمتعة الجنسية. هناك عدة أسباب لهذه التغيرات: في نهاية الحمل قد يخشى الزوجان من تأثير العمل الجنسي على الجنين (مع أن هذه الخشية لا مبرر لها غالباً). بالنسبة لبعض النساء قد يصبح الجماع مؤلماً وبالنسبة لأخريات قد تقل المتعة بسبب شعورهن بأنهن أصبحن أقل جاذبيةً أو بسبب قلقهن من عدم قدرتهن على إشباع أزواجهن جنسياً.

بعد ولادة الطفل فإن قلة النوم والتعب العام قد يخفضان من الرغبة الجنسية. قد يجد الآباء والأمهات الجدد أن وجود الطفل الجديد يعيق من عفويتهم كما أنه قد يقاطعهم أثناء محاولتهم للاقتراب من بعضهم جسدياً. بالنسبة للعديد من الأزواج قد يسبب الجماع الأول بعد الولادة عدة مشكلات للزوجين: قد تكون هذه المشكلات جسدية (تسرب الحليب أو الألم) أو عاطفية (القلق بسبب الجاذبية الجسدية أو إرضاء الشريك جنسياً) تختلف تأثيرات الطفل الجديد على العلاقة الجنسية بين الزوجين بشكل واسع. على أي حال يذكر بعضهم حدوث القليل من التغيرات وعندما تحدث هذه التغيرات قد تكون قصيرة الأمد وقد تدوم مدة طويلة.

النبرة العاطفية للتفاعل بين الزوجين (السلبية والإيجابية) إن المناخ العاطفي هو جانب مهم آخر من جوانب العلاقة بين الزوجين. يشعر الناس بأقوى المشاعر في سياق علاقاتهم الحميمة وغالباً ما تنتقل المشاعر التي يشعر بها أحد الزوجين إلى الزوج الآخر إما مباشرةً أو بشكل غير مباشر. بسبب ازدياد المهام الملقاة على عاتقهما

وانخفاض الفرص التي تسمح لهما بالمشاركة والعلاقة الحميمة من المتوقع أن يذكر الزوجان تغييراً في المناخ العاطفي للعلاقة بينهما. أي أننا قد نتوقع من الأزواج أن يذكروا حدوث تفاعلات إيجابية أقل فيما بينهم وازدياد التفاعلات السلبية، إن بعض الدراسات التي أُجريت على الآباء والأمهات الجدد توحى بهذه النتيجة.

على سبيل المثال بيّنت كلُّ من الأسئلة المطروحة على الأزواج والملاحظات المباشرة أنَّ قدوم الطفل الجديد يؤدي إلى انخفاض في تعبير الزوجين عن الحب وغيرها من التفاعلات الإيجابية (كاهتمام الزوجين ببعضهما). إضافةً إلى ذلك غالباً ما يذكر الوالدان الجديان رغبتهما في أن تحدث التفاعلات الإيجابية بينهما بشكل أكثر تواتراً.

بالنسبة للتفاعلات السلبية وجد بعض الباحثين أن الآباء والأمهات الجدد يسجّلون عدداً أكبر من الجدالات والصراعات وارتفاعاً في الشعور العام بالتوتر في الحياة الزوجية. هناك بعض الأدلة على أنَّ قدوم الطفل الجديد يرافقه ميل أحد الزوجين أو كليهما إلى تجنُّب الخوض في الخلاف. بعبارةٍ أخرى يميل الآباء والأمهات الجدد إلى الاستجابة للخلافات الزوجية بأن يصبحوا أكثر هدوءاً وانسجاماً ربما لأنَّ الاختلاف يجعلهم أكثر هشاشةً بعد قدوم الطفل الجديد.

كما أنَّ هذه النتائج بيّنت أن المناخ العاطفي بين الزوجين يصبح أقلَّ إيجابية بين الآباء والأمهات الجدد مما هو عليه بين

غيرهم من الأزواج. من المهم أن نلاحظ أن هذا الاستنتاج قد تمّت معارضته. فعلى سبيل المثال: قارن هيوستن وفانجيلستي (1995) التفاعلات بين الأزواج الذين ليس لديهم أولاد والأزواج الذين أنجبوا أولاداً لأول مرة بواسطة مقابلات عن طريق الهاتف يتم من خلالها سؤال الزوجين عن سلوكيات معينة على مدى عدّة أيام. بيّنت هذه الطريقة الموضوعية إلى حدّ ما أنّه لا فرق بين المجموعتين من الأزواج في توافر السلوكيات الإيجابية (كقول «أحبك») أو السلوكيات السلبية (كالشكاوى أو الانتقادات).

الرضا عن العلاقة بين الزوجين

على الرغم من أهميّة النظر إلى أنواع التفاعلات بين الآباء والأمهات الجدد إلّا أنه من المهم أيضاً أن نعرف كيف يشعر هؤلاء إزاء العلاقات فيما بينهم. إنّ التغيّرات التي وصفناها حتى الآن (توزيع العمل، انخفاض الأوقات التي يقضيها الزوجان معاً) قد تشير إلى أنّ الأزواج يصبحون أقلّ رضا عن علاقاتهم الزوجية مما كانوا عليه قبل إنجاب الطفل الأول. على أي حال فإن المنطق يقتضي أنّ هذا الأمر لا ينطبق على كلّ الأزواج. إذا توقّع الأزواج أن ولادة الطفل الأول ستحدث هذا النوع من التغيّرات فإنهم قد يتقبّلونها بسهولة.

إن الدراسات التي أُجريت على الآباء والأمهات الجدد تلقي بعض الضوء على هذا الموضوع لكنها أيضاً تُظهر مدى تعقّده.

النقاط التي يجب ملاحظتها هي أنّ نتائج الأبحاث لم تكن كلها متشابهة. ربطت العديد من الدراسات بين إنجاب الطفل الأول

وانخفاض شعور الزوجين بالرضا عن العلاقة بينهما. ولكن العدد نفسه من الدراسات تقريبا بيّن أن هذا الانخفاض يماثل الانخفاض الذي يحدث بين الأزواج الذين لا أولاد لهم (وبالتالي لا يمكن أن نعزوه إلى إنجاب الطفل الأول). إن هذا الاختلاف في نتائج الدراسات يشير إلى أن أي تقارير عن «متوسط مدى التغير» غالباً ما تخفي اختلافات مهمة بين مختلف الأزواج. في الحقيقة يركّز بعض الباحثين اليوم على محاولة تحديد المسارات المختلفة للشعور بالرضا. على سبيل المثال، حدّد بلسكي وروفين (1990) أربع مجموعات من الآباء والأمهات الجدد من فترة الحمل وحتى الإنجاب: مجموعتين أديتا انخفاضاً في الشعور بالرضا (بشكل أكبر عند إحدى المجموعتين من المجموعة الأخرى) في حين أبدت إحدى المجموعات ثباتاً في مستوى الشعور بالرضا وأظهرت مجموعة أخرى ازدياداً طفيفاً في هذا الشعور.

هناك مصدر آخر للجدال الدائر في هذا الموضوع يتعلّق باختلافات في الشعور بالرضا لها علاقة بالجنس. فقد بيّنت بعض الدراسات أن الانخفاض في الشعور بالرضا يكون أكثر وضوحاً عند الأمهات مما هو عليه عند الآباء. على أي حال يبدو أن هذا الاختلاف الواضح بين الجنسين يعتمد على توقيت التقييم. إذا قيس الشعور بالرضا عن العلاقة بين الزوجين في أثناء الشهور الأولى من عمر الطفل فإن النساء أكثر عرضةً من الرجال لإبداء انخفاض في الشعور بالرضا عن علاقاتهنّ الزوجية. من ناحية

أخرى بعد عام أو أكثر من ولادة الطفل غالباً ما يبدي الآباء انخفاضاً مشابهاً. باختصار يبدو أن الرجال أكثر بطئاً في التأثر بقدم الطفل الجديد ربّما لأنّ مشاركتهم اليومية في العناية بالطفل لا تكون كبيرة في البداية.

بالطبع إنّ هذا الاختلاف في المشاعر بين الزوجين في الشهور الأولى قد يسبب عند بعض الأزواج نوعاً من البعد العاطفي أو الصراع.

ملخص للتغيرات

نعرض ملخصاً لما ناقشناه حتى الآن، غالباً ما يؤدي إنجاب الطفل الأوّل إلى تغيّراتٍ في مجالات توزيع المهام وأوقات الفراغ والصحة والعلاقة الحميمة. ليس هناك ما يفاجئ في هذه النتائج لأنّ هذه المجالات هي التي تتأثر بشكل مباشر بوجود الطفل الجديد. في المقابل فإنّ التغيّرات في المناخ العاطفي بين الزوجين وفي مستويات الشعور بالرضا تبدو أقل وضوحاً. عندما نجد تغيّرات في هذه المجالات فإنها عادةً ما تكون صغيرة في حجمها ومشابهةً للتغيّرات التي تحدث بين الأزواج الذين لا أولاد لهم بعبارةٍ أخرى يعاني بعض الأزواج من مشكلات واضحة في علاقاتهم بعد مجيء الطفل الأوّل في حين أنّ أزواجاً آخرين لا يتأثرون بذلك. سوف نبيّن في القسم الثاني بعض الأسباب المحتملة لهذه الاختلافات في تجربة إنجاب الطفل الأوّل.

لماذا يكون بعض الأزواج أحسن حالاً من الآخرين؟

ذكرنا سابقاً أن تأثيرات قدوم الطفل الجديد تختلف بشكل كبير من أسرةٍ إلى أخرى. من المهم أن نفهم العوامل المرتبطة بالتأقلم مع هذه المرحلة الانتقالية. وفقاً لدراسات بيلسكي وبينسكي (1988) فإنَّ هناك أربع مجموعات مهمّة من العوامل: العوامل المرتبطة بالطفل وتلك المرتبطة بالوالدين كأشخاص والعوامل المرتبطة بالعلاقة بين الزوجين وأخيراً العوامل المرتبطة بالشبكة الاجتماعية الأوسع.

صفات الطفل

ليس مفاجئاً أن تؤدي صفات الطفل دوراً مهماً في عملية التأقلم. هناك صفات معيَّنة تؤثر بشكل كبير على تأقلم الوالدين بما في ذلك مزاج الطفل وصحته الجسدية. بالنسبة إلى المزاج على سبيل المثال، من الواضح أن الأطفال ليسوا كلهم سواء فبعضهم وديع تسهل تهدئته في حين أن بعضهم الآخر هائج أو صعب المراس.

إن الأطفال الهائجين يتطلبون مزيداً من الجهد من آبائهم وهم يجعلون عملية التأقلم أكثر صعوبة.

بعض الحالات الحادة التي يعاني منها الأطفال كالولادة المبكرة والمرض والإعاقة الجسدية تترافق مع مستويات أعلى من الشدة النفسية. تتطلب هذه الحالات قيام الوالدين بمهام إضافية للعناية بالطفل. كذلك على الوالدين أن يتأقلموا مع خيبة أملهما في

قدوم طفلٍ طبيعيٍّ ومع ظرفٍ غالباً ما يكون خارجاً عن سيطرتها (بارك وبيتل 1988).

الوالدان كأشخاص

إن الصفات الشخصية للوالدين تقوم بدور مهم في تسهيل أو تعصيب عملية التأقلم مع قدوم الطفل الأول. على سبيل المثال، إنَّ الوالدين المعرَّضين للاكتئاب أو للشعور بالدونية غالباً ما يعانون أكثر عند قدوم الطفل الأول. هناك جوانب أخرى من الشخصية ونمط السلوك لها علاقة بهذا الأمر. على سبيل المثال، وجد ليفي شيف (1994) أن إنجاب الطفل الأول يتمُّ تقبُّله بشكل أسهل عند النساء اللواتي يعتمدن على أنفسهن ولديهن القدرة على التنظيم وعند الرجال الذين ينظرون إلى أنفسهم كأباءٍ يهتمُّون بالعناية بأطفالهم وتربيتهم. ربما تسهِّل هذه الصفات على الأبوين تقبُّل الواجبات الجديدة التي يقتضيها قدوم الطفل الجديد والعمل معاً على الاستجابة لحاجاته.

إن النظرة التقليدية لدور الجنس تؤدي إلى حدٍّ ما دوراً في تسهيل عملية التأقلم مع قدوم الطفل الجديد وخصوصاً بالنسبة للنساء. رأينا قبل قليل كيف أنَّ قدوم الطفل الجديد يرسِّخ التوزيع التقليدي للعمل بين الزوجين فإذا كان الزوجان يحملان النظرة التقليدية إلى دور الجنس فإنهما سيتقبلان هذا التغيُّر بسهولة. إن الزوجات اللواتي يحملن النظرة التقليدية يرتحن لدورهن في رعاية الطفل والاعتناء به وغالباً ما ينظرن إلى هذا الدور على أنه

اختصاصهن. إن هذه النظرة تناسب الأزواج الذين يحملون أيضاً النظرة التقليدية لدور الرجل ويفضلون التركيز على كسب الرزق للعائلة والقيام بالمهام (الذكورية).

كذلك تؤدي التوقعات التي يحملها الآباء والأمهات الجدد دوراً مهماً في التأقلم مع قدوم الطفل الجديد. يذكر العديد من الآباء والأمهات اختلافاً كبيراً بين توقعاتهم وتجاربهم الحقيقية وبالتحديد قد يجدون أنهم يقضون وقتاً في رعاية الطفل أكثر من الوقت الذي توقعوه وأن أوقات الفراغ والنشاطات الاجتماعية أصبحت أقل مما كانوا يتوقعون. إن اختلاف التوقعات عن الحقيقة يترافق مع صعوبة في عملية التأقلم مع قدوم الطفل الأول.

العلاقة بين الزوجين

لا شك أن العلاقة بين الزوجين تؤدي دوراً أساسياً في عملية التأقلم مع إنجاب الطفل الأول. عندما تكون مستويات الرضا عن العلاقة والترابط بين الزوجين عالية قبل الولادة يتأقلم الوالدان مع المرحلة الجديدة بشكل أفضل. هذه النتيجة أكدتها بشكل مستمر الدراسات التي أجريت على مدى أربعين عاماً. في الحقيقة إن الدراسات الطويلة التي قارنت الأزواج الذين أنجبوا أطفالاً مع أولئك الذين لم ينجبوا بيّنت أن المستويات الأولية من الرضا عن العلاقة بين الزوجين تفسر الرضا عن هذه العلاقة فيما بعد أفضل من ربط هذا الأمر بكون الزوجين قد أنجبا أطفالاً أم لا. إن الدور الأساسي الذي يؤديه الرضا عن العلاقة ينطبق على الرجال

والنساء وفقاً لـ غروسمان (1988) فإن علاقة زوجية مُرضية تزيد من شعور المرأة بالراحة والثقة خلال فترة الانتقال تلك. إضافة إلى ذلك فإن رضا الزوج عن العلاقة الزوجية ودعم زوجته له يحددان مستوى اندماجه مع الطفل وكذلك قدرته على القيام بمهام الوالد.

على الرغم من أن الرضا الكلي عن العلاقة بين الزوجين مهم جداً إلا أن الرضا عن توزيع وأداء المهام مهم على وجه الخصوص. على سبيل المثال وجد ليفي - شيف (1994) أن ضعف مشاركة الآباء (وخصوصاً في العناية بالطفل) كان أكثر العوامل تأثيراً على انخفاض الشعور بالرضا عند الآباء والأمهات. ما بدا أنه المهم هنا ليس حجم المشاركة وإنما مدى شعور الزوجين بأن هذه المشاركة منصفة أو غير منصفة. وجد كلٌّ من تيري وماك هيوغ ونولر (1991) أن النساء اللواتي يرين مشاركة أزواجهنَّ منصفة لهنَّ يزداد شعورهن بالرضا خلال الانتقال إلى مرحلة الأمومة. مرةً أخرى إن التطابق بين التوقعات والحقيقة يؤدي دوراً مهماً: عندما ترى الأمهات أنهنَّ يقمن برعاية الطفل وأعمال المنزل أكثر ما كُنَّ يتوقعن (وهو أمرٌ شائع الحدوث كما ذكرنا) فإن ذلك يزيد من شعورهنَّ بعدم الرضا. كذلك يبدو أن تأقلم الزوج مع الانتقال إلى مرحلة الأبوة يتأثر برضاه عن عملية اتخاذ قرار توزيع المهام أكثر من تأثره به (من يفعلُ وماذا يفعلُ؟).

الشبكة الاجتماعية

وفقاً للعديد من الباحثين فإنَّ التأقلم مع الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة يصبح أكثر سهولة عندما يستمدُّ الزوجان العون والدعم من الآخرين. من السهل فهم هذه النتيجة إذا أخذنا بعين الاعتبار التغيُّرات والحاجات التي تطرأ مع قدوم الطفل الجديد. إنَّ العلاقات خارج وداخل العائلة تؤدي دوراً مهماً هنا.

بالتحديد أشار بيلسكاي (1984) إلى أنَّ الأشخاص الآخرين يمكن أن يساعدوا الأبوين بوحدةٍ من ثلاثة طرق. أولاً: يمكن أن يؤمّنوا للأبوين الدعم العاطفي والشعور بالتقبُّل وذلك من خلال الحديث إليهما عن الموضوعات المتعلقة بقدوم الطفل الجديد وإبداء التفهّم للمتعة والتحديات التي يواجهانها. ثانياً: يمكن أن يؤمّنوا المساعدة العملية فعلى سبيل المثال يمكن أن يساعدوا في تحضير الوجبات وغيرها من مهام المنزل ممّا يمكّن الأم من التركيز على العناية بالطفل. وأخيراً فإنَّ الأصدقاء وأفراد العائلة الذين مرّوا بهذه المرحلة يمكن أن يكونوا مصدراً للتوقعات المناسبة وأن يساعدوا الأبوين الجديدين على التعامل مع قلقهما ومخاوفهما. بالطبع قد تشكّل ملاحظات ونصائح الآخرين مصدراً للإزعاج بدلاً من أن تكون مصدراً للدعم وخصوصاً إذا نُظِرَ إليها على أنَّ فيها شيئاً من التطفل أو على أنها غير مناسبة أو بالية.

الروابط بين العوامل التي تؤثر في التأقلم

على الرغم أنَّه من المريح الحديث عن مجموعات من العوامل التي تفسّر الاختلافات في التأقلم (العوامل المتعلقة بالطفل

وبالزوجين كأشخاص وبالعلاقة بين الزوجين وبالشبكة الاجتماعية) إلا أن هذه العوامل لا تعمل بشكل منفصل. فصفات الطفل (بما في ذلك المزاج) يمكن أن تؤثر على تأقلم الأبوين وعلى أنماط التفاعل بينهما. على سبيل المثال، إذا كان الطفل «لين العريكة» فإن ذلك يقوي الشعور بالثقة وأن الأمور على ما يرام عند الزوجين وبالتالي يحسن العلاقة بينهما. كما أن اجتماع انخفاض تقييم الذات مع نقص الدعم الاجتماعي يعرض الأمهات لحدوث مشكلات في عملية التأقلم مع قدوم الطفل الجديد. بعبارة أخرى إن أفضل طريقة للنظر إلى الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة هي أنه «جزء من نظام متداخل من العوامل والأحداث» (أوسوفسكي وكُلب 1993، ص 79).

الخلاصة

إن الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة هو موضوع ذو اهتمام عالمي إذ إن معظم الناس لديهم أفكار قوية عن تجربتهم مع آبائهم وأمهاتهم عندما كانوا أطفالاً وعن التكاليف والفوائد التي سيحصلون عليها فيما لو أصبحوا آباءً وأمهات.

صحيح أن النظرة إلى عملية الانتقال تلك على أنها (أزمة) قد تغيرت إلا أن هذا الانتقال يُحدث تأثيرات بالغة على الأشخاص وعلى العلاقة فيما بينهم. تتضح هذه التأثيرات في مجالات واجبات المنزل والعلاقة الحميمة بين الزوجين. يتعامل بعض الأزواج مع الانتقال إلى مرحلة الأبوة أو الأمومة بسهولة أكثر من

الأزواج الآخرين، إن العلاقة بين الزوجين هي مفتاح التأقلم مع عملية الانتقال تلك. سوف نقدّم في الفصل الآتي مفهوم الارتباط الذي يُكوّن طريقة جديدة في التفكير بالعلاقة بين الزوجين. إن مفهوم الارتباط يساعدنا على فهم أهمية الروابط بين الزوجين في إشعارهما بالراحة والأمان ويفسّر لنا لماذا يكون التأقلم مع التحدي والتغيير أسهل عند بعض الأزواج من أزواج آخرين.

